العرب
الأحد 2021/08/08
السنة 44 العدد 12142

الشاعر الحقيقي عليه أن يترك المقهى وينضم إلى الصيادين ورعاة البقر

الشاعر والروائي التشيلي روبيرتو بولانيو كرّس أدبه لمواجهة الظلام والشر

يعتبر الشاعر والروائي التشيلي روبرتو بولانيو صوتا من الأصوات الروائية المجددة في الفن القصصي الأميركي اللاتيني المعاصر. استهل نشاطه الأدبي بمجموعة من الدواوين الشعرية، ثم اتجه إلى الرواية والقصة القصيرة. واجتهد منذ البداية في خلق مدرسة أدبية جديدة في أدب أميركا اللاتينية بشكل عام، والتشيلي بشكل خاص، ليصبح واحدا من أهم الكتاب العالميين.

الشعر عند بولانيو نضال ضد الرعب والشر

حميد عبدالقادر
روائي جزائري

أحدث الروائي التشيلي روبيرتو بولانيو (1953–2003) قطيعة نهائية مع أدب الواقعية السحرية، فقد اختار لنفسه منذ مغادرته التشيلي رفقة أفراد عائلته عقب انقلاب الجنرال بينوشيه على حكومة سالفادور أليندي الديمقراطية سنة 1973، بعد أن تعرض للمضايقات ثم السجن، شكل بالنسبة إليه دافعا لاختيار المنفى، والانفتاح على الأدب العالمي، واستجلاء التجارب الأدبية الإنسانية التي مهّدت الطريق لجيل روائي جديد.

اتخذ الروائي لنفسه خيار السير على درب التجريب دون محاكاة "الواقعية السحرية" ومماثلتها، حين أوجد رفقة روائيين آخرين تيارا أدبيا سمّي بتيار "الواقعية التحتية" (أو ما دون الواقعية، وقد امتدت إلى غاية سنة 1977)، دعا أنصاره إلى جعل الشعر يهتم بالهوامش والعوالم السفلية، وحيوات أولئك الذين لا يبالي بهم أحد، والتخلي عن كل شيء في الحياة من أجل الأدب. ثم تحول إلى ما يسمى بـ"الواقعية العميقة" (حين نشر روايته الشهيرة "رجال التحري المتوحشون") التي تعد بدورها قطيعة إبداعية أخرى مع أدب "الواقعية السحرية".

حركة أدبية

ليس من الغريب أن بولانيو، الابن الزمني لنهاية "البوم الأدبي" وبداية المرحلة التالية لها، كان تروتسكيا أراد المشاركة في بناء موطنه الأصلي بعدما فاز سالفادور أليندي بالانتخابات الديمقراطية، وأنه بقي اشتراكيا حتى وفاته. ليس من الغريب أيضا أن يكون أبناء جيله، الذين أسس بعضهم حركة "الواقعية التحتية"، ملتزمين سياسيا. لكن من الأهمية بمكان إدراك الفرق بين التزام جيل "البوم" السياسي، والتزام الجيل اللاحق – جيل بولانيو – السياسي.

> الروائي حسب بولانيو لا يشرح الأسباب التي أوجدت الشر في العالم، ولا يكمن دوره في تبسيط الحكاية

ففي حين عاصر أدباء جيل "البوم" بدايات المشاريع الثورية، وكلهم أمل في حلول مستقبل مشرق، عاصر جيل بولانيو في سنوات مراهقته الكوارث التي حلت بهذه المشاريع الثورية في ما بعد. فالحزب الثوري المؤسساتي تسبب بمذبحة طلاب "تلاتيلولكو" في مدينة مكسيكو عام 1968، وغرقت التيارات اليسارية المختلفة في صراعات دموية حصدت أرواح الكثيرين، من بينهم الشاعر السلفادوري روكيه دالتون الذي كان صديقا لبولانيو، والذي قتله، أثناء نومه، أحد أعضاء جيش الثورة الشعبي الذي كان ينتمي إليه.

حافظ أبناء جيل بولانيو على إيمانهم بجدوى العمل السياسي، وانتمت أغلبيتهم الساحقة إلى هذا التيار اليساري أو ذاك. في 1967، وقف بولانيو بشعره الأشعث على طريقة "الهيبي" الأميركيين، يلقي "مانيفستو" حركة "ما دون الواقعية"، يحث فيه الشعراء على التخلي عن كل شيء لأجل الأدب. وقال إن الشاعر الحقيقي يتوجب عليه أن يترك المقهى، وأن ينضم إلى "الصيادين، ورعاة البقر المنطوين (..) وزبائن البقالات المبصوق عليهم.. وأولئك الذين لا ينتبه إليهم أحد، والآخرين الذين لا يحبهم أحد". وقد التزمت هذه الحركة الأدبية – كما فعلت السوريالية في بداياتها – برفض فصل العمل الفني عن الفعل الثوري".

تألفت هذه الحركة الأدبية من مجموعة من الصعاليك والمتسولين والشحاذين وأصحاب الطموح الأدبي الذين انشغلوا بكتابة أدب مغاير تماما للأدب المعاصر وقتذاك، قالبا ومضمونا. وكانوا يذهبون إلى الجلسات الشعرية ليقاطعوا الشعراء من أعدائهم بقراءة قصائدهم هم بصوت عال. ويقال إن أحدهم رمى كأس نبيذ في وجه أوكتافيو باث ذات مرة. وإن كان لأعدائهم من الشعراء والأدباء شيء مشترك، فقد كان مساندتهم لحكومة الحزب الثوري المؤسساتي، التي يقال إنها كانت تكافئ مساندها من الأدباء والمفكرين بالصيت والمال.

ولم يغيّر بولانيو من مواقفه هذه يوما بل ادعى أكثر من مرة أن حركة الواقعية السحرية "عفنة"، وأن إيزابيل أليندي "ليست كاتبة وإنما آلة كاتبة"، وأن باولو كويلو "كساحر مشعوذ في المسلسلات الرخيصة". وقالت مترجمته ناتاشا ويمر عنه "لقد كان رفض امتهان الشعر بالنسبة إلى بولانيو ورفاقه أسلوبهم في أخذ الشعر على محمل الجد – والعكس بالعكس – وكان بولانيو يحب أن يقول إن: المؤلف لو عاش ما يكتبه روحا لشعر قارئه بضرورة عيشه أيضا".

وبخصوص التقليد والتجديد، يقول بولانيو في حوار مع الشاعرة المكسيكية كارمن بولوسا ما يلي "الأدب الأميركي اللاتيني في القرن العشرين اتبع بواعث المحاكاة والتمرد، وقد يستمر في فعل ذلك لبعض الوقت في القرن الحادي والعشرين. وكقاعدة عامة، فإن البشر إما يقلدون أو يرفضون الآثار الكبرى، ولا يلتفتون للكنوز الصغيرة، يكادون لا يرونها. لدينا عدد قليل جدا، يكاد يكون منعدما، من الكتاب الذين أجادوا صنعة الفانتازيا بمعناها الدقيق، لأن التخلف الاقتصادي – إلى جانب أسباب أخرى – لا يسمح بازدهار الاتجاهات الفنية والأدبية الفرعية. التخلف لا يحتمل غير الأعمال الأدبية العظيمة، الأعمال الأقل، في هذا المشهد الكارثي الرتيب، هي رفاهية بعيدة المنال".

لهذا يعد بولانيو حاليا أحد أكثر المؤلفين اهتماما ودراسة في الأدب اللاتيني – أميركي المعاصر. بحيث تشهد أعماله على ممارسة الكتابة الأدبية للتعبير عن القلق والشعور الدائم باللاطمأنينة وهو يرافقه أين ما حل في ترحاله، كما تعتبر رديفا إبداعيا لمقاربة قضايا الإنسان المعاصر بعيدا عن الانغلاق في المحلية.

تتميز جميع أعماله بحضور شخصيات من الفنانين أو الشعراء الذين يكتشفون عوالم الكتابة، ويتحاورون مع أفكار الكتاب والروائيين عبر العصور، فيستحضرون نظريات النقد الأدبي ويناقشونها (رواية 2666)، ويتوغلون في تاريخ أوروبا المخيف، ويستحضرون جرائم النازية (رواية "الرايخ الثالث")، وغيرها.

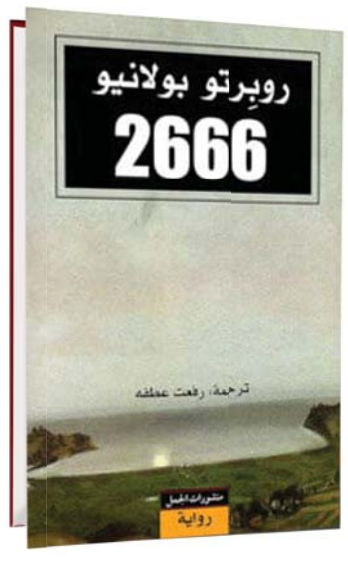

كتابة بولانيو الأدبية، تعني أيضا فعل تعقب واستجلاء أمكنة الشر الذي ميز القرن العشرين برمته، وسكن الإنسان الحديث الذي اخترع أيديولوجيات الإبادة والقتل والتصفية من أوشفيتز إلى الغولاغ. هذا الاستجلاء يتضمن النصوص الروائية التي يخصصها للدكتاتورية في بلده، وبالأخص رواية "ليل التشيلي" التي قالت عنها الناقدة سوزان سونتاج إنها رواية "كتبت لتحتل مكانة عالمية في الأدب الإنساني". كما يتضمن رواية "رجال التحري المتوحشون" (التي وصفها النقاد بأنها "صفعة تاريخية هائلة لحجلة كورتاثار")، والتي خصصها لدولة المكسيك المعاصرة التي قضى فيها جزءا كبيرا من شبابه قبل أن يغادرها نحو إسبانيا. لتقع أعماله لاحقا في قلب تاريخ أوروبا المعاصر، كما هو الحال في روايته "الرايخ الثالث".

منذ ولوجه فضاء الآداب الإسبانية في عام 1996، شاعرا، ثم قاصا، كتب بولانيو تسع روايات. أثار انتباه النقاد عالميا، ليس فقط من خلال جودة أعماله الروائية وقيمتها الفنية، بل حتى بفضل نزعته الفكرية التي تعبر رواياته. لكن بشكل خاص من خلال الجرأة والحرية التعبيرية التي يكتب بها. فمنذ روايته الأولى سنة 1984 "دروب الفيلة" (La senda de los elefantes)، أوجد لنفسه مكانة مميزة في الفضاء الروائي اللاتينو – أميركي، باعتباره ساردا بارعا، وسيدا يعرف كيف يمسك بزمام نصه، بفضل قدرته على تقديم سرد يسير جنبا لجنب مع المعرفة والتاريخ. فقدم أدبا يسحر بقدر ما يزعج. فكان نصه، الرافض للامتثال، ساخرا ومرعبا في الوقت ذاته.

نحن بعيدون في روايات بولانيو التي يقدمها وفق طريقة "الكتابة الأدبية البوليسية"، عن تلك الممارسات

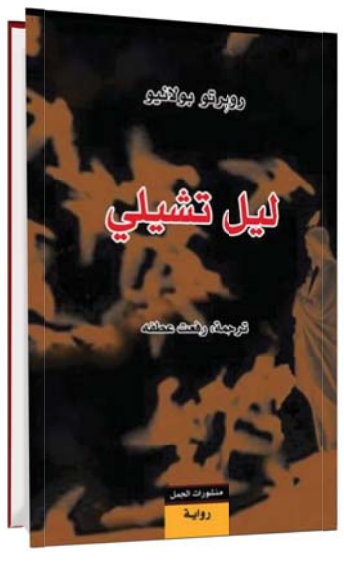

الكتابية الراسخة ذات التقاليد الكلاسيكية لنوع أدب التحري البوليسي. فالتحقيقات الموجودة في رواياته لا تفضي إلى أي نتائج. وينتقل هذا الإخفاق في التحري من رواية إلى أخرى. وفي بعض الأحيان، تظهر الشخصيات وتختفي وتعاود الظهور مجددا وتتنكر باعتماد هويات مزيفة. مع ذلك، فإن الألغاز تبقى قائمة، بل تصبح أكثر كثافة كلما تقدمت الرواية.

عالم الألغاز

يحكي أنس الحوراني عن عالم روبرتو بولانيو الأدبي و"رجال التحري المتوحشون" (مجلة "حبر" الإلكترونية.. أبريل 2017.) أن شخصيتي أرتورو بيلانو (وهذا اسم روبيرتو بولانيو المستعار) وعوليس ليما (اسم ماريو سانتياغو في أعمال بولانيو) اللتين تظهران في روايتي "رجال التحري المتوحشون"، و"تعويذة"، بالإضافة إلى العديد من القصائد والقصص القصيرة والروايات الأخرى. أو خذوا شخصية أوكسيليو لاكوتور، التي تظهر لوقت قصير في رواية "رجال التحري المتوحشون"، لتعاود الظهور في رواية "تعويذة"، المخصصة بالكامل لها، أو شخصيتا "روزا أمالفيتانو" و"أوسكار أمالفيتانو" اللتان تظهران في رواية "2666"، ثم تعاودان الظهور في "ماسي الشرطي الحقيقي" (2011)، أو شخصية راميريث هوفمان اليمينية المتطرفة، وموضوع باب "راميريث هوفمان سيء السمعة" في موسوعة الأدب النازي في الأميركيتين الخيالية، والتي تعاود الظهور كشخصية رئيسية وباسم ألبرتو لويث – تاغل في "نجمة بعيدة".

ويضيف الحوراني "القائمة تطول، وعالم بولانيو معقد ومليء بالشخصيات المتشابكة والمتبادلة، الأمر الذي يجعل قراءة مجموع أعماله كمشروع أدبي موحد خيارا صائبا وضروريا. وليس من الغريب أن أكثر هذه الشخصيات مستوحى من حياة بولانيو نفسه".

هناك من النقاد من يقارن بين كتابات بولانيو ونصوص خورخي لويس بورخيس أو خوليو كورتاثار، أو القاص الأميركي إدغار آلان بو، وهي كتابة إما تغري القارئ، وتجذبه إليها، أو تملأه بالارتباك، وتجعله يشعر بما يشبه النفور منها، بسبب رفض الراوي، وبشكل متعمّد إعطاء تفسير لما يحدث من حوله. هذه المهمة متروكة للقارئ. وهذا جزء من تقاليد أدبية عريقة انتشرت في الرواية اللاتينو – أميركية منذ خوان كارلوس أونتي، وإلى غاية في أعمال روائيي "البوم" الأدبي.

يتساءل قارئ أعمال بولانيو عما إذا كان ما يقرأه مرتبطا فعلا برواية بوليسية أو برواية غامضة، أو أنها أي شيء آخر مختلف تماما. إن الغموض الذي يكتنف رواياته، والذي يقترب كثيرا من غموض الكاتب الأميركي إدغار آلان بو (بالأخص في روايته "دروب الفيلة")، هو الذي يسبب كل هذا الشك.

أكثر من ذلك، فالمؤلف نفسه يستمتع بالحديث عنها، ويذهب إلى حد التنبؤ بما سوف يقوله النقاد بشأنها، مثلما نجد في رواية "2666". يقول بولانيو عن هذا الموضوع "أنا أحب الرواية البوليسية. لكن، لا أتفق مع القاعدة الكلاسيكية لهذه الرواية التي تقوم على الراوي – فك الشفرة – القارئ – القراءة". هذا الرفض الصريح لواحد من المعايير الأساسية لأدب التحري الكلاسيكي، جعل وظيفة الراوي تقتصر على اقتراح فكرة حل الغز، ونقل فك تشفيره إلى القارئ.

لذا يقدم بولانيو نظرته للرواية البوليسية على الشكل التالي، ووفق ما جاء في أحد حواراته "تسعى الرواية البوليسية الجيدة، من بين أشياء أخرى، أن تجعل القارئ يؤدي دور مفكك الشفرات. لذلك تقترح عليه جميع العناصر (في شكل مبعثر، فوضوي) حتى يتمكن من إعادة ترتيبها وفهمها، وفي الأخير تهنئة نفسه على النتيجة التي يتوصل إليها. سيسمح له ذلك بالقبض على القاتل وفهم متى وكيف ولماذا تم ارتكاب الجريمة".

يكشف عالم بولانيو الروائي، المليء بالألغاز، والجرائم، والقتلة، والتحقيقات، عن نقد صارم لمجتمع أميركا اللاتينية المعاصر. تبيّن ذلك منذ أعماله الأولى. بما في ذلك رواية "La Literatura nazi en América"، التي تتكون من ثلاثين سيرة متخيلة للمؤلفين اللاتينو– أميركيين الذين ارتبطوا بالنازية، وبعالم الشر. بهذا المعنى، يجسد المؤلف، في جوانب معينة، ما يسمى بأيديولوجية "ما بعد الحداثة"، التي تتجلى وتلوح من خلال التخلي عن التجديد وفكرة التقدم، وعن كل ما دافع عنه الحداثيون، والعودة إلى أشكال الماضي وتحديثه بعد الشك فيه. يسير هذا الشك في هذه القيم، جنبا إلى جنب مع خيبة الأمل المرتبطة بالتحولات المختلفة التي حدثت منذ السبعينات في أوروبا وأميركا، عندما بدأ الخطاب يتغير في علاقته بالحداثة المخيبة.

> كتابة بولانيو الأدبية، تعنى بتعقب واستجلاء أمكنة الشر الذي ميز القرن العشرين برمته وسكن الإنسان الحديث

هكذا، فإن خيبة الأمل هذه برزت في روايته الشهيرة "2666" التي نشرها سنة 2004، أي بعد رحيله بسنة، وتجلت بالخصوص من خلال عدم قدرة سكان مدينة "سانتا كلارا" على مواجهة المجرمين، تماما كما عجز القس سيبستيان أورتيا لاكروا في رواية "ليل التشيلي" عن مواجهة الدكتاتورية. كما تفسر عبر الانتقال من خطاب إضفاء الشرعية (الرسمي) إلى خطاب شهادة (غير رسمي)، ومن خطاب متفائل ومتفجر (ثوري، تحرري) إلى خطاب متشائم ومخيب للآمال، ومن التمثيل المرئي للواقع إلى التمثيل المشوه له، ضمن ما يسميه جان بودريار بـ"المحاكاة".

من وجهة نظر اجتماعية، تتميز الشخصيات في رواية "2666" بكونها تعيش في عزلة تامة وعند الهامش. كما أنها في حالة ترحال دائم وعدم استقرار مستمر. تبحث دائما عن "الجوهر" والهوية لملء فراغها الداخلي. في هذا الصدد، تقول فلوريتا ألمادا في الرواية، في شكل مناجاة داخلية "أنت، وحيد، غريب دائما. ماذا تعني هذه العزلة الهائلة؟ يشير مصطلح 'العزلة'/'الوحدة' متعدد العلامات إلى عزلة الشخصيات، في حين أن الجوهر يحيل إلى ترحالها. ترحال يظهر بشكل خاص في الفصل المعنون بـ"La parte de los críticos" حيث انطلق جان كلود بيليتيبه وبييرو موريني ومانويل إسبينوزا وليز نورتون في رحلة بحث عن الكاتب الألماني الغامض بينو فون أرشيمبولدي، فيسافرون إلى العديد من البلدان، مثل إسبانيا، فرنسا، المكسيك، إنجلترا، ألمانيا.. إلخ. فما هو سبب هذا الترحال؟ هل يمكن أن يعزى إلى فراغ وجودي فقط؟".